ليسمح لي الشعراء والادباء اللغويون ، بالسؤال عما اذا كان تحديد العروضيين الشعر كافياً لان يتّبع في صناعة الشعر ؛ وليأذنوا لي في رمي هذه الحصاة في بحر هذا الموضوع ، واني لراضٍ بما يكون من مفعولها ، اصابت تمام الاصابة او بعضها ، ام اخطأت الخطأ كله او بعضه .

لقد عرف العروضيون الشعر بقولهم : « انه الكلام الموزون المقفى » ووقفوا عند هذا الحد ، فخيّل الى الذهن ، انهم راضون بتمييزه عن النثر بهذا التعريف وكفى . على حين ان هذا التعريف لم يكن الا فارقاً لفظياً بينهما ، وان الشعر كان ولم يزل واسطة لاظهار الاحساس العقلي والتاثير النفسي . والحال ان هذا يتطلّب من الكلام ان يكون مفرغاً بقالب فني من البديع اللفظي والمعنوي لما فيها من الكفاءة على اظهار ذلك الاحساس والتأثير . واذن فذلك التحديد ، الذي ادلى به العروضيون الينا ، لم يفِ بالمقصود ، لانه بات قاصراً عن ادراك كنه الشعر الحقيقي ، واظهار اغراضه الخاصة به ، اذ ليس كل كلام موزون مقفى يدعى شعراً . لذلك كان لا بدَّ للشعر من تحديد كامل يكون اضمن لماهيته واظهر لاسلوبه ، وما الاسلوب الكتابي بالاجمال ، الا عبارة عن منوال تنسج عليه التراكيب ، وقالب تفرغ فيه الالفاظ ، فيجيء الكلام مطابقاً لواقع الحال .

واذن فاهلّ التعريف الاصدق ، او الاقرب الى الصدق للشعر هو هذا: انه الكلام البليغ ، الخارج من النفس المتأثرة به ، المفرغ بقالب الاستعارة ، المربوط بالوزن والقافية .

قلنا : هو الكلام البليغ ، اخراجاً للكلام المجرّد من البلاغة ، فانه لا يكاد يميز ماهية الشعر عن ماهية النثر التي هي سهولة المبنى وصراحة المعنى ، والنثر — كما اظن — لا يحسن ان يخرج عن ماهيته هذه الطبيعية ، لانها افضل طريقة موضوعة لاظهار ما يدور في خلد الانسان من المعاني للمفاهمة بين الجميع . لذلك وجب ان يكون النثر جلياً واضحاً ، بحيث يسهل الوصول الى معناه فوراً حال مطالعته دون ما ادنى اجهاد فكر .

اما الشعر فلا بأس ان يختص بفئة من الناس ترفعت في علومها ومداركها عن الفئة الاخرى منهم التي لم يتسنَّ لها ذلك ، لان الشعر كالفنّ ، فالانسان اذا لم يكن لما يتحفنا به مغزًى او كان له كناية صادقة عن حقيقة من الحقائق ، لا يكون لفنه شيء من ارتفاع الشأن . وذلك لان غاية الفن هي ان تخيل الينا النفوس من وراء الاجساد . كذلك يجب ان يرينا الشاعر الحقائق من وراء الالفاظ ، لان غاية الشعر هي ان ترمي الى ما وراء الالفاظ ، الى المعاني الجميلة ، موارية الاغراض النبيلة تحت الصور الخيالية . اذ في الشعر حقائق ادبية خالدة خلوداً يمتنع على الحقائق الخارجية التي يدركها الزوال ويفنيها الاضمحلال . فأيّ شعر كانت هذه صفته فلا غروَ ان يستولي بمعانيه على قوى النفوس ، ويأخذ بمجامع القلوب ، بل ويختصّ — كما تقدم — بالفئة المتأدبة بالادب الكامل ، اذ لكل قوم ادب خاص به دون سواه ، والادب الذي لا يوضح عن البيئة التي يقوم فيها فليس هو بادب .

الا ان ذلك لا يعني ان يكون النثر خالياً من البلاغة ، كلّا ، سيما وان للبلاغة مراتب شتى على حد قول القزويني : «ان للبلاغة طرفين ، اعلى ، وهو حدّ الاعجاز ، او ما يقرب منه ، واسفل ، وهو ما اذا عدل عنه الى ما هو دونه ، التحق عند البلغاء ، باصوات الحيوانات . وبينهما مراتب شتى ووجوه اخر تورث الكلام حسناً» ؛ او ان يكون غير موشى باثواب البديع اللفظي ، فكم

ان الشعر هو من تراث العرب الادبي ، كذلك النثر ايضاً ، والشاهد واضح. فكم ينفر الذوق السليم من مطالعة مقال وحشيّ الالفاظ ، جافي التعابير ، مبتذل المعاني . الا ان ذلك النفور منه يكون الى حدّ ما ، ثم ينقضي ، لانه يُعذر عليه ، نظرًا لماهية النثر كما اشرنا اليه . ولكنه لا يعذر قط على عدم النفور الشديد من الشعر اذا كان فيه جفاء وابتذال ، بل وعلى السماح فيه ، ولو كان ببعض ظروف. ذلك لان الشعر لم يكن قط لغرض تنفر منه النفس ، او لمعنى يبذه الذوق السليم .

هذا ، وان الاغراض الشعرية تكاد تنحصر في نقطة من الادب ، وهي سموّ المعنى ، والمبالغة في اظهاره ، وتكييفه بكيفية تجعل النفس مأخوذة به متأثرة بعوامله التي يرمي اليها ، سواء أكان من فرح او ألم ، انس او وحشة ، حب او بغض ، رجاء او يأس ، الى غير ذلك من العوامل التي من شأنها ان تؤثر في النفس ، وتحملها الى ما فوق المادة ، فتسبح في عالم الخيال الشعري.

قلنا : الخارج من النفس المتأثرة به . وبالاحرى المفطورة عليه ، اذ لا يكفي في النفس ملكة الكلام على وجه الاجمال ، بل تحتاج الى ميل خاص الى رعاية اساليب الشعر . لان كل كلام مصدره النفس ، ولكنّ فرقاً عظيماً بين ان تكون تلك النفس متحركة الى اظهار ذلك الكلام ، عن عاطفة فطرية فيها ، وكان باعثها الى ذلك كل من حسن الاقتران في التعبير والمعنى المبتكر ، وانتقاء الوزن والقافية ، لما في ذلك من الموافقة لمطابقة واقع الحال والمقال ، بحيث يشعر القارئ انه صورة مصغرة لتلك النفس ، يقرأ في خلاله آلامها وافراحها ، ويفهم من اساليبه معنويتها الفطرية التي انتهت فيها الدراسة ، او التربية ، او المحيط ، او الظروف ، او الاحوال دينية كانت ام عالمية ، وبين ان تكون تلك النفس مضطرة لاظهار ذلك الكلام ، من بعض العوامل الطارئة عليها عرضاً ، حال كونها خالية من كل تأثير يجعل الشعر حقيقياً ، فيشعر به القارئ كانه مسحوب من بين حناياها سحباً ، لذلك جاء خالياً من كل صبغة شعرية. وبعبارة اوضح ان الشاعر الذي لا يتأثر باحد هاتيك العوامل الطبيعية التي من شأنها ان تلجج النفس فتلهبها ، فيتزيّى فيها من العواطف ما يجير الغير

على الاحساس بها ، لا يمكن ان يكون شاعرًا . وهاك مثالًا ، لا اخالك عند مطالعته ، الا مسلمًا بهذا الكلام ، وهو من قول الاخطل ، وابن ذي الكلاع ، حين بلغهما ان الخليفة عبد الملك قرّب منه زفر بن الحرث ، وكان هذا رئيس القيسية وطالما كان قد اعمل سيفه بالتغلبيين لاطاعتهم عبد الملك . ثم قضت الظروف عليه بالانقياد لبني امية بعد ان كان عصاهم ، فاضطر امير المؤمنين عندئذٍ ان يقربه منه لاستمالة قومه . وكان ان دخل ابن ذي الكلاع على الامير ، فرأى ابن الحرث هذا جالسًا معه على السرير ، فبكى ، فسأله الامير عما ابكاه فقال : « كيف لا ابكي ، وسيف هذا يقطر من دماء قومي في اطاعتهم لك وها هو معك على السرير ، وانا على الحضيض ! » فقال الامير : « اني لم اجلسه معي لكونه اكرم عليَّ منك ، كلّا ، ولكنَّ لسانه لساني وحديثه يعجبني » فاتصل ذلك بالاخطل فقال : « والله لاقومنَّ من ذلك مقامًا لم يقمه ابن ذي الكلاع » . ثم دخل على امير المؤمنين ، وبعد التغطّن به قال :

وكأس مثل عين الديك صرف تنبي الشاربين لها العقولا
اذا شرب الفتى منها ثلاثًا بغير الماء ، حاول ان يطولا
مشى قرشيّة لا شك فيها وارخى من مآزره فضولا

فقال الامير : « ما اخرج هذه منك ، يا ابا مالك ، الا خطة في رأسك »

فقال : « اجل يا امير المؤمنين ، حين يجلس عدوّ الله معك على السرير ، وهو القائل :

« فقد بنيت المرعى على دمن الثرى وثبّى حزازات الصدور كما هيا »

فغضب الخليفة ، ورفس ابن الحرث برجله فرمى به من عن السرير ، فذهب هذا يقول : « والله ما كنت لاوقن بالموت قط ، الا حين قال الاخطل ما قال . »

فهلّا رأيت ان هذا الشاعر اندفع بعامل فطري انته فيه الاحوال السياسية ، الى ابراز عاطفة في نفسه اثّرت بها الى حدّ انها اضطرت امير المؤمنين ان يتأثر بها ، ويرفس ابن الحرث ، الذي لم يكن خطاب ابن ذي الكلاع النثري ، ليؤثر به ، فيطرد زفر دون ان يلحق به اذًى ؟

قلنا : المفرغ بقالب الاستعارة : اخراجاً له من الكلام الذي لا يحتاج الى اعمال فكرة لفهمه ، بل يشعر القارئ كأنه يقرأ من شيء محسوس سطرت روايته تسطيراً واضحاً واقعياً ، دون ان يعمد الى اي استعمال مجازي او استعارة فيه ، يجتل ذلك الكلام ، مثلاً كأن تقول : «رأيت ثعلباً» ، بدلاً من ان تقول : رأيت محتالاً ، وانت تقصد ثعلباً ، على شرط انه لا بدَّ للكلام المجازي من قرينة تنفي عنه ارادة المعنى الاصلي لمنع اللبس في اداء المعنى المقصود. فالكلام في التعبيرين وافٍ بالمقصود ، مشيرٌ الى ان المرئيَّ هو ثعلب حقيقي ، الا ان التعبير في الاول هو اسلوب نثري ، خلافاً للتعبير الثاني فانه اسلوب شعري. واذاً فوجه الجمال في النثر غيره في الشعر ، فالكلام المرسل هو ما وضح معناه ، ولم يحتج الى اعمال الفكر لفهمه . اما الشعر الجميل فهو ما احوج القارئ الى التروي والتدقيق في اظهار حقيقته ، لان الكلام الواضح المعنى ، ولاسيما الخالي من كل استعارة ، او كان معناه مجازياً مبتذلاً ، فانه لا يؤثر في النفس كالكلام الذي تحتاج الى الغوص على معانيه ، حتى اذا ما استخرجتها كالدر من العباب ، وجدت لذةً فيها ما كانت لتجدها في المعنى الذي داهمها عفواً من دون ما ادنى تروٍ واجهاد فكر.

قلنا : المربوط بالوزن والقافية ، اخراجاً له من الكلام المنثور ، الغيرالمربوط بشيء من ذلك . على حين ان هذا الشرط ، وان كان من اركان الشعر اليوم ، فلم يكنه في الماضي ، واذن فليس ضرورياً لان يكون داخلاً في ماهيته ، واصل وضعه . والشاهد ظاهر لنا على هذا من مطالعة الشعر القديم الوارد في كتب الديانات كالتوراة ، والنبوّات ، والقرآن . فان الشعر لم يكن على شيء من هذا ، بل كان يُعرف من سموّ معانيه ، ونباهة اغراضه ، وحسن اسلوبه ، وتسلطه على الاحساس والشعور النفسي الذين كانا ولم يزالا من قوام الشعر ابن العاطفة ، والعاطفة بنت البيئة والتاريخ ، وغير ذلك من مختلف العناصر التي تغذي الشعور والاحساس باحسن الاغذية الادبية.

اما القافية ، فيظهر انها وان كانت من موضوعات العرب الاقدمين في الشعر ، فهي من التحسينات التي ادخلها عليه المتأخرون لزيادة جماله وحسن

انشاده ، وبالاحرى ليجيء كاملًا معنى ومبنى .

على ان من الصيغ النثرية ما يقارب الشعر في الانشاد جدًّا المقاربة ، فالسجع المتقارب الفواصل يشبه الشعر بقافيته ووزنه ، وبقدر الاحسان في انشائه ، بقدر ذلك تتأثر به النفوس تأثرها بالشعر ، اذ لا يضر ان يكون النثر منحوًّا فيه نحو الشعر في البلاغة والتأنق في التراكيب ، واستخارة المعنى الجميل كما تقدم الكلام عنه . الا ان ذلك هو من اغراض الشعر واساليبه ولذلك كان اولى من النثر به . واني احيلك الى مطالعة فصل طريف دبجته براعة حضرة الاديب فؤاد البستاني ، استاذ الادب العربي في كلية القديس يوسف ، نشرته مجلة « المشرق » الغراء في عدد ايار سنة ١٩٣٢ أسماه « حول النثر الجاهلي » ، تناول فيه مغنوية الشعر الادبية ، التي نحن في صددها ، لما اضطره اليه داعي المقال للمقايسة بين النثر المسجع المتقارب الفواصل ، والشعر الموزون المقفى . وفي ذلك الفصل خير برهان ، على تحقيق هذا .